

4

قصص الصحابة

امرأة من أهل الجنة

سلوى العنانى

دار اللطائف
للنشر والتوزيع

امرأة من أهل الجنة

(بـــركـــة)

[أم أيمن أمي بعد أمي]

صدق رسول الله

ستتحدثُ الآن عن واحـدةٍ مـن خـيرِ النسـاءِ المسـلماتِ اللواتي لازَمْنَ الرسولَ ـ عليه السلامُ ـ منذ لحظـةِ مولـده وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ..

كان اسمها (بركـة) .. فلمـا تزوجـت أنجبـت صبيـا أسمته (أيمن) ومن يومها عُرِفت باسم (أم أيمن) .. وبـهذا الاسـم تحدثت عنها كتبُ السِّيرة ، ونحن عندما نتحدث عنها قبـل ميلاد (أيمن) سنسميها (بركة) أما بعد ميلاد أيمن فسـنطلق عليها اسم (أم أيمن) .

●●●

كان شابًا مـن أكـرم شـباب مكـة .. فـهو سـليلُ أشـرف عائلاتها وابنُ أعرقِ قبائلها .. وكان الجميع يتطلع عليـه – كلما غدا أو راح – بإكبارٍ وإعزازٍ واحترامٍ .. فهو فوق كـل

ما ذكرنا .. شابٌ وسيمُ الطلعــة .. في مشـيته رجولـة .. وفي حديثه حكمة وفي مجلسه أُنْس ..

هو عبدُ الله بنُ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي .

هو الشابُّ الذي افتداه أبوه بمائةٍ من الإبل وفـاء لنـذر .. وكان هذا هو أغلــى فـداءٍ دفعـه أحـدُ العـرب حتى هـذا التاريخ .

ولما بلـغ عبـدُ الله الرابعـة والعشـرين رغـب أبـــوه أن يزوجه ، وكان لابد أن يبحـث عـن فتـاة لا تقـل شـرَفا ولا حَسَبًا عن ابنه .. وجد هذه المواصفات في آمنةَ بنــت وهـب ابن عبد مناف سيد بني زهرة .

يا له من اختيار .. أن يتزوج ابن سيدِ بني هاشم من ابنـة سيد بني زهـرة .. وتمضـي الأسـابيع بالعروسـين مُسْـرعة .. وتشعر الزوجة الشـابة بـأعراض الحمـل ، لتدخـل سـعادةٌ جديدةٌ إلى حياةِ هذه الأسرة الصغيرة .

لكن إقامة الزوج مع زوجته لم تَطُلْ .. فقد خَرَجَ في تجـارة إلى بلاد الشام وترك عروسه في بيــت أبيـه ومعـها جاريتُـه الحبشية (بركة) .

مضت الأيام على آمنــة بطيئـة متثاقلـة .. وكيـف لهـا أن تَسْعد وقد سافر زوجها بعد أسابيع قليلة من زواجهما .

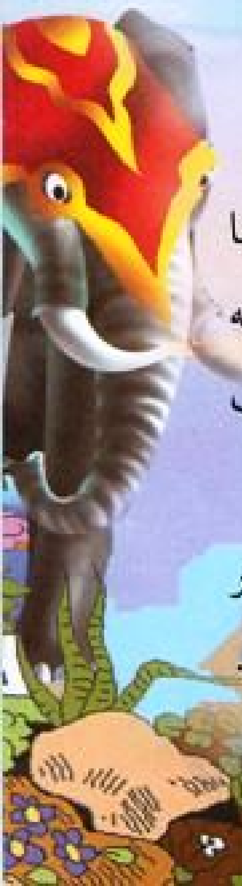
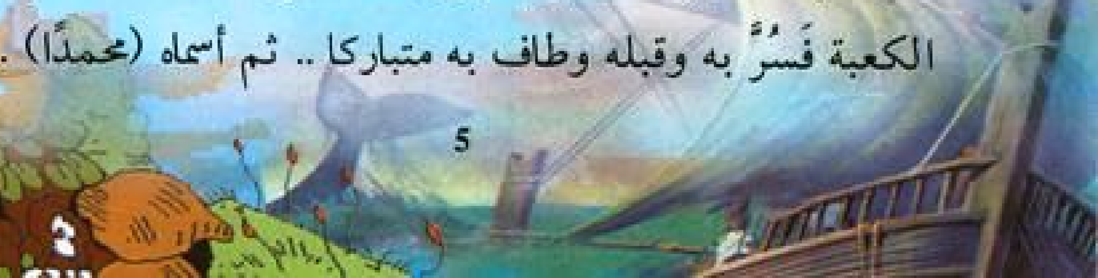
ويأتي الناعي بخبر وفـاةِ فتـى قريـش .. زينـة فتيـان بـني هاشم .. وسيمِ الطلعةِ، جميل الأخلاقِ .. وتتهاوى (آمنة) .. وتنـهار قواهـا.. وتشـعر أن الدنيـا قـد خلـت مـن الحُـبّ والسعادة .. إلا أنَّ (بركة) الجارية الحبشية كانت نِعْمَ المُعـين وخَيْرَ رفيـقٍ (لآمنـة) .. فكـانـت ترعاهـا وتـهتم بحملـهـا .. وتسري عنها بالحديث ..

كـانت (بركـةُ) ضمـن الإرث المتواضـع الـذي تركـه (عبدُ الله).. وكان هذا الإرث يشمل خمسةً من الإبل وقطيعًا من الأغنامِ .. وهذه الجارية الطيبة الحنون (بركة) ..

وتتقدم شهورُ الحمل (بآمنة) حتى تأتي ساعة المخاض .

وتقف (بركة) إلى جوار سيدتها تساعدها وتخفـف عنـها آلام الوضع حتى تستقبل المولود على يديها .. تُسـرع إليـه فتلفه وتحتضنه في حُبٍّ .. ولم لا .. إنه الحبيب ابـن الحبيـب والحبيبة ..

وأسرعت (بركة) بالوليد إلى جَدِّه الذي كان جالسًا بجوار الكعبة فَسُرَّ به وقبله وطاف به متباركا .. ثم أسماه (محمدًا) .

هكذا كانت (بركة) هي أول حضن ضَمَّ محمدَ بن عبد الله لتظل إلى جواره لا تفارقه حتى يلقى ربَّه .

ورضيت (آمنة) بقضاء الله ورأت في ابنها (محمد) خير عِوَضٍ عن فَقْد زوجها الذي اختطفه الموت منها وهو ما زال شابا .. فضاعفت حنانها ورعايتها له ، وكان من عادتها أن تسافر مرة في كل عام إلى (يثرب) حيث بني عدي (أخوال عبد المطلب جد ابنها محمد) .. وتزور قبر زوجها الحبيب .. وكان يصحبها في رحلتها ابنها وخادمته (بركة) التي لم تكن تفارقها أبدا ..

وتروي لنا (بركة) عن ذكريات إحدى هذه الزيارات (ليثربَ) فتقول :

(أتاني رجلان من اليهود يوما نصف النهار فقالا : أخرجي لنا أحمد ، فأخرجته فنظرا إليه وقبلاه مليا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : هذا نبيُّ هذه الأمة .. وهذه دارُ هجرته ، وسيكون بهذه البلدة من القتل والسبي أمرٌ عظيم .

قالت بركة : ووعيت ذلك كله من كلامهما) .

لقد بشَّرت كتبُ الأديان السماوية السابقة على الإسلام برسالة محمد وذكرت أوصاف هذا النبي وظروف دعوته ..

إلا أن عددًا كبيرًا من أتباع هذه الأديان (خاصة اليهود) لم يؤمنوا بمحمد ولا بدعوته .. وها هي (بركة) مربيته الرؤوم تروي هذه الرواية التي تؤكد علم هؤلاء بقرب ظهور نبي .

وفي طريق العودةِ من إحدى هذه الزيارات .. وكان (محمدٌ) في حوالي السادسة من عمره .. مرضت (آمنة) ثم اختطفها الموتُ لتُدفن – هي الأخرى – بالقربَ من (يثرب) .

حزن الفتى (محمدٌ) حزنا شديدا من أجل أمه .. بغيابها ستحيطه الوحدةُ والوحشةُ .. فقد كانت هيِ مصدرَ حنانِ الوجودِ .. بعد فقده لأبيه .

لابد أنه كان موقفا قاسيا على (بركة) التي استيقظت فيها مشاعرُ الأمومة .. وعَصَرَها الألمُ لحال هذا الطفلِ الذي كُتِبَ عليه اليتمُ من أبيه ومن أمه وهو لم يزل ابن السادسة .. وشعرت (بركة) بأنها أمام مسئوليةٍ كبيرةٍ .. فهي جاريةُ الطفلِ التي ورثها عن أبيه .. وهي المخلوقُ الوحيدُ المتفرغ لخدمته .

وإلى بيت جده (عبد المطلب) عاد (محمد) ومعه (بركة) التي ظلت ترعى شئونه وتقوم على خدمته .. وكانت له

نِعْمَ الأم بعد أمه .

ومن ذكريات هذه المرحلة تحكي لنا بركة هذه الحكاية :

(كنت أحضن(*) رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفلت عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول : يا بركة !

قلت : لبيك .. قال : أتدرين أين وجدت ابني (يعني حفيده محمدًا) .. قلت : لا أدري .. قال : وجدته مع غلمان قريبا من السدرة ، فلا تغفلي عنه ، فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبيُّ هذه الأمة ، وأنا لا آمنهم عليه) .

إذا .. فقد كانت معرفة أهل الكتاب بنبوة (محمد) أمرا معروفا ومنتشرا حتى إن جدَّه كان شديدَ الحرص عليه .. يوصي (بركة) ألا تغمض عينيها عنه لحظةً خشية أن يتعرض له أحد بأذى . كان الجد (عبد المطلب) شديدَ التعلق بحفيده (محمد) فهو ابن (عبد الله) الفتى الذي لم تشهد له مكةَ نظيرًا في الجمالِ والحكمةِ والوسامةِ والرزانةِ .. الفتى الذي افتداه أبوه بأغلى ما يفتدي أبٌ ابنه حتى هذا التاريخ .

(*) أحضن : أقوم على رعاية الطفل وخدمته .

وتضاعف حنانُ الجد على حفيله بعد موت أمِّه (آمنة) وتضاعفت مسئوليتُه عنه .. لكنه كان يرى في (بركة) خيرَ مُعين له على تحمل هذا .. فهي بديلٌ عن الأمّ حنانا ورعاية .. وبديلٌ عن الأبِ مراقبة وحماية .

وتروى الأخبار أن (عبد المطلب) .. وهو سيد قريش وكبير أشرافها كان يُصِرُّ على أن يجلس (محمد) إلى جواره على الفراش المخصص له بينما يجلس باقي أبنائه بعيدا . وكان كثيرا ما يربت على كتفه ويسمعه حلو الكلمات ، وكأنه يتمنى أن يُخفِّفَ عن كاهلِ هذا الصغير ألمَ اليتم الذي عاناه ..

ولحكمة لا يعلمها إلا الله وحده ماتَ الجدُّ (عبد المطلب) بعد عامين من موت (آمنة) لينطفئ آخر مصابيح الحنان في حياة (محمد).



ويروى أن محمدًا بكى جدَّه بحرقة شديدة .. فقد كان يبكي فيه الجد الحنون .. والأبَ الذي مات قبل أن يُولد .. والأم التي حرمه الموت من دفء أحضانها .

لكنَّ عينَ (بركة) لم تكنْ تغفل لحظة عن الصبيِّ .. ولم تبخلْ عليه بالحبِّ والحنانِ والدفءِ وصدق الرعاية ..

وكأنها تحاول أن تعوضه عما فقد .. مرة بعد الأخرى .

وبعد موتِ (عبد المطلب) انتقل (محمدٌ) ومعه (بركة) إلى بيت عمه (أبي طالب) الذي كَفَلَ الصغيرَ بعد جده .. وتتمسك (بركة) بصغيرِها وتصرُّ على رفقته ورعايته وتحرص على كل شئونه ..

ومما ترويه ـ رضى الله عنها ـ عن طفولة النبيِّ صلى الله عليه وسلم.. تقول : (ما رأيت رسول الله شكا جوعا ولا عطشا لا في كِبَرِه ولا في صِغَرِه .. كان يغدو إذا أصبح فيشربَ من ماءِ زمزم شربة .. فربما عرضنا عليه الغذاء فيقول : أنا شبعان) .

لم تكن طفولةُ النبيِّ ـ عليه السلامُ ـ ولا صِباه مثل طفولة وصِبًا باقي أقرانه وأترابه بل كان نسيجا خاصا وطبيعة مختلفة.. كان كثيرَ التأمل .. هادئ الطبع .. مبتعدًا عن أماكن اللهو والعبث .. كثير الصمت وكأنه يفتش عن حقيقة يراها غائبة ..

وكان في نفس الوقت عازفا عن الطقوس والاحتفالات الدينية التي تُقام للأصنام والأوثان .

فكما عَصَمَه الله من الهوى التي يَزِلُّ فيها بعضُ

الشباب .. عصمه عن السجود للأصنام ..

تروي (بركةُ) أنه كـان (ببوانـة)(*) صنـم تحضـره قريـش وتعظِّمه وتنسـك لـه النسائك ويحلقـون رؤوسَـهم عنـده ويعكفون عنده يوما إلى الليل ، وذلك يوما في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكـان يكلـمُ رسـولَ الله ـ عليـه السلام ـ أن يحضر ذلك العيد مـع قومـه فيأبى رسـولُ الله ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غَضِـبَ عليـه ورأيـت عماتـه غَضِبْنَ عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : ما تريـد يا محمدُ أن تحضر لقومِك عيدًا ، ولا تُكثر لهم ؟

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شـاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا فَزِعا ، قالت عماته : ما دهاك؟.. قـال : إني أخشى أن يكون بي لمم .. فقلن : مـا كـان الله ليبتليـك بالشيطان ، وفيكَ من خِصَال الخيـر مـا فيـك .. فمـا الـذي رأيت؟

قال : إني كلما دنوت من صنمٍ منها تمثَّل لي رجلٌ أبيض طويلٌ يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه .. فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ)(**) .



(*) بوانة : منطقة قريبة من ساحل البحر الأحمر .
(**) تنبأ : نزل عليه وحي النبوة .

كان (محمد) عليه السلامُ إنسانا رقيقا مرهف الحسِّ صادقَ المشاعر .. فقد أدرك مدى إخلاص خادمته (بركة) وكان يقدِّر ما تصنع من أجله ويشعرُ بعواطفها الصادقة تجاهه ..

فلما تزوج ـ عليه السلامُ ـ من السيدة خديجة أعتق (بركة) تقديرا لما صنعت وعرفانا بجميلها .. إلا أن (بركة) لم تترك بيتَ (محمدٍ) ولم تجِدْ في عِتْقها أي امتياز يجعلها تغادره .. فقد كان سيدها يُحسن معاملتها ويشعرها دائما بآدميتها ويقدر عطاءها .. وهذا هو نبي الإسلام محمد .. يكرم خادمه ويطعمه مما يطعم ويكسوه مما يَلبس ولا يسمعه ما يجرح إنسانيته ولا ينهره أبدا حتى لو أخطأ .

لقد أصرَّتْ (بركة) على صُحبة النبي وهي حُرة .. كما أحبت صُحبته وهي جارية .. فقد كانت أقرب الناسِ إلى رسول الله وكان يناديها (يا أمَّه) وكثيرا ما قال عنها .. (هذه بقية أهل بيتي).

وتزوجتْ (بركةُ) من رجل من بني حارث يدعى عبيد ابن زيد وأنجبت منه (أيمن) الذي كانت تُنادَى باسمه وأصبحت تعرف (بأم أيمن) ولما نزل الوحي على رسول

الله ـ عليه السلام ـ كانت (أم أيمن) و(أيمن) من أوائل من دخل الدينَ الحنيفَ وكان ولاؤهما للنبي الكريم ولاء لا نظيرَ له ..

وتقول بعض الروايات إن (أم أيمن) هاجرت بدينها مع من هاجَرَ من المسلمين الأوائلِ إلى الحبشة ..

لكنها هاجرت بكل تأكيد مع النبيِّ إلى المدينة ..

ويموت (عبيد بن زيد) زوج (أم أيمن) وتستيقظُ في قلب النبي مشاعر البنوة تجاه المرأة التي يقول عنها (أمي بعد أمي) ويشعر بمسئوليةٍ تجاهها وتجاه استقرارها وأمنها .. فيرى أنه يجب عليه أن يزوجها .



جلس النبيُّ يوما بين أصحابه وقال لهم : من سَرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج (أم أيمن) .

ويبادر (زيدُ بن حارثة) حِبُّ رسولِ الله ومولاه .. ليتزوج هذه السيدة الفاضلة .

كان (زيدٌ) لا يقل فضلا عن (أم أيمن) . فهو من السابقين إلى الإسلام وهو الذى آثر البقاء مع النبي عن العودة لأهله ، وهو الذي قالت عنه السيدة عائشة : (ما بعث رسول الله زيدَ بن حارثة في جيش قط إلا أمَّره

عليهم .. ولو بقي حيا بعد الرسول لاستخلفه) .

وها هو (زيد) يبادر ليتزوج امرأة تقية صالحة رغم أنها تكبره سنا وليس لها مال ولا جمال يغري شابًا في مثل سن (زيد) .. لكنه اختارها لتقاها وورعها وحُسن إسلامها .. وهو يأخذ بنصيحة رسول الله (اظفر بذات الدين) .. وقد ظَفَرَ زيدُ بن حارثة بذات الدين التي قال عنها الرسول : (امرأة من أهل الجنة) .

ويثمر الزواجُ فتى مسلما تشهدُ له ساحاتُ القتالِ في سبيل الله والجهاد لنصرة دينه هو (أسامة بن زيد) الذي قاد جيشَ المسلمين في عديد من المعارك والمواقف وخرج فيها جميعا منتصرا .

فهل اقتصر دور (أم أيمن) في الحياة على حَضانة النبيِّ وخدمته ثم حضانة أولادها (أيمن) و(أسامة) وتربيتهم على مبادئ الإسلام حتى أصبحا من أعلام الدعوة الإسلامية ؟

لا .. لم يكن هذا هو دور أم أيمن فقط .. وهو دور عظيم ورائع أدَّته هذه السيدةُ العظيمة على خير وجه ..

لكنها كانت فوق هذا الدور محاربةً صامدةً .. فقد حَضَرَتْ كل المشاهدِ والغزوات مع رسول الله .. و كان دورُ

النساء في هذه المعارك خلف صفوف المقاتلين دائما ..

في أُحُدٍ .. كانت (أم أيمن) مع غيرها من النساء تداوي الجرحى وتسقي المحاربين .. وفي خيبر كانت تحارب مع المحاربين وتخدم المقاتلين خلف صفوف القتال حتى إن النبيَّ ـ عليه السلامُ ـ كان يعطيها حقها من (الفيء)(*) .

عُمِّرت (أم أيمن) حتى جاوزت التسعين .. وشهدت وفاة النبيِّ ـ عليه السلامُ ـ ووفاةُ أبي بكر وعمر .. وكان بكاؤها على النبيِّ بكاء حارا .. فهو الابن الحبيب .. وهو الرسول الكريم .

عاشت (أم أيمن) تذكر كيف كان النبي يمازحها .. فقد طلبت منه يوما أن يحملها – أي يعطيها ناقةً تركبها في سفر – فقال عليه السلام : أحملك على ولد ناقة .. فظنت أنه يريد أن يحملها على فصيل(**) .. فقالت : يا رسول الله .. لا يطيقني ولا أريده .. فقال: لا أحملك إلا على ولد ناقة ..

وكان الرسول يمزح ولا يقول إلا الحق .. فالإبل كلها ولد ناقة ..

(*) الفيء : غنائم الحرب

(**) الفصيل : هو وليد الناقة .

ومن المواعظ النبوية التي نقلتها لنا (أم أيمن) أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

"لا تشـرك بـالله شيئا وإن عُذبـت وإن حُرقـت ، وأطـع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هو لـك فـاخرجْ منه ، ولا تتركْ صلاةً مكتوبةً عمدًا .. فإن من تـرك الصـلاة عمدًا فقد برئت منه ذِمة الله .. وإياك و الخمر .. فإنها مفتاح كل شر ، وإياك ومعصية الله فإنـها موجبـة لسـخط الله ولا تَغْلُلْ(*) ولا تفر يوم الزحف وإن هلكت وفَـرَّ أصحـابك ، وإن أصاب الناسَ مَوَتانٌ(**) وأنت فيهم فاثبت ، ولا تنـازع الأمرَ أهله ، وإن رأيت أنه لـك ، وأنفـق مـن طَوْلـك(***) على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنـهم أدبا ، وأخفـهم في الله عز وجل" صدق رسول الله .

(*) الغلول : هو الخيانة .

(*) الموتان : هو الوباء .

(*) الطول : الغنى واليسر .